سلسلة الثقافة الإسلامية ﴿٩٥﴾

الكلمات الإبراهيمية العشرة في القرآن الكريم

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٩٥ -

*　　*　　*

اسم الكتاب: الكلمات الابراهيمية العشرة في القرآن الكريم

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الاولى: .... ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:........ مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف



﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

البقرة: ١٢٣

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فأَتَمَّهُنَّ
قَالَ: إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً
قَالَ: وَمِن ذُرِّيَّتي؟
قَالَ: لاَيَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة دراسات قرآنية شيقة:

منها الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها عبده وخليله ورسوله إبراهيم عليه السلام: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ).

وإتمام إبراهيم لهذه الكلمات (فَأَتَمَّهُنَّ) وهي شهادة من الله تعالى لإبراهيم، وناهيك بها في فضل إبراهيم ودرجته عند الله.

ومنها الإمامة التي أناطها الله تعالى بإبراهيم بعد أن اتمّ هذه الكلمات، وعلاقة الإمامة بالكلمات.

---

(١) البقرة: ١٢٣.

وهل هي النبوة ـ وقد كانعليه السلام نبياً، عندما أتمّ بعض هذه الكلمات، أم هي شأن آخر غير النبوّة، وهو ما نرجّحه، بل نقطع به.

ومنها الشرط الذي تقرره الآية الكريمة للإمامة «لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»، عندما طلب إبراهيمعليه السلام الإمامة من الله تعالى لذريته، فاستجاب الله تعالى لدعائه، ثم بين الله تعالى له انه لا يعهد بالإمامة إلى الظالمين من ذريته.

وما هو معنى الظلم الذي يمنع من الإمامة؟

وهل يمنع التلبس بالشرك والظلم من الإمامة في فترة من العمر، أم أن الآية الكريمة تقرر أن الله تعالى لا يعهد بالإمامة إلى من يتلبس بالظلم حالة التلبس بالإمامة.

تلك وغيرها أبحاث ودراسات في هذه الآية الكريمة ونحن في هذه الدراسة نتناول البحث عن «الكلمات الإبراهيمية». إنشاء الله.

الابتلاء في حياة الأنبياء

الابتلاء سنة إلهية عامة في حياة الناس، وعلى سلّم الابتلاء يرقى الإنسان إلى لقاء الله وقربه تعالى، ومهما كان حظّ الإنسان من الابتلاء، ونجاحه في تجاوز الابتلاء افضل يكون قربه إلى الله تعالى أكثر.

ففي الابتلاء يتضرع الإنسان إلى الله ويكدح إليه تعالى، ويقوى عوده على مقاومة الهوى. ويرقى إلى لقاء الله تعالى وقربه.

ولا تستثني هذه السنة الإلهية الأنبياءعليهم السلام. بل إن الأنبياء أكثر الناس حظاً من الابتلاء، ومراتبهم عند الله تعالى في القرب هي درجاتهم في الابتلاء وتجاوز الابتلاء.

واليك طائفة من الشواهد على ابتلاء الأنبياء.

١ ـ ابتلاء آدم (ع):

وأول من ابتلى الله تعالى أبونا آدمعليه السلام، ابتلاه بالشجرة الممنوعة.

﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتَما وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين* فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَات فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(١).

ومهما يكن أمر هذا الابتلاء، ومهما تكن قصة الشجرة الممنوعة، فقد كان هذا الابتلاء أول ابتلاء في تاريخ الإنسان، وكان هو السبب، كما نفهم في دخول الإنسان دار التكليف.

٢ ـ ابتلاء يوسف (ع):

وابتلى الله تعالى يوسف الصديق عليه السلام بامرأة العزيز فعصمه الله تعالى في هذه الفتنة التي تقول عنها امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾، وآثر

(١) البقرة: ٣٥ ـ ٣٧.

السجن على معصية الله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾(١).

وخرج منها منتصراً على الشيطان. فآتاه الله على ذلك الحكم والعلم:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وبقي يوسف عليه السلام رغم هذا الانتصار على الشيطان يدعو الله تعالى أن يصرف عنه كيدهن، ويرفع إلى الله تعالى فقره وضعفه وعجزه، لولا رحمته وإمداده وتوفيقه وهدايته تعالى.

﴿..وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ وَأَكُن مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وأصل القصة كما يحدثنا الله تعالى في كتابه هو:

---

(١) يوسف: ٣٢ـ ٣٣.

(٢) يوسف: ٢٢.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْـوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِـنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

٣ ـ ابتلاء ذي النون (ع):

ومن نماذج ابتلاء الأنبياء ابتلاء يونس عليه السلام ببطن الحوت في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت. فسبّح لله تعالى، وأناب إليه، واستغفره سبحانه، فاستجاب الله تعالى له، وأنجاه من سجنه.

يقول تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَـنَّ أَن لَّـن نَّقْـدِرَ عَلَيْـهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ أَنـتَ سُـبْحَانَكَ إِنِّـي

---

(١) يوسف: ٢٣ ـ ٢٤.

كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

٤ـ ابتلاء موسى (ع):

ومن اكثر الأنبياء ابتلاءً كليم الله موسى بن عمران عليه السلام فقد ابتلاه الله بكلمات كثيرة فأتمَّهنَّ، وآتاه الله تعالى الحكم والنبوة.

وها نحن نذكر نماذج مما ابتلى الله تعالى به عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام.

منها ابتلاؤه بدعوة طاغية عصره إلى عبادة الله تعالى وإطلاق سراح بني إسرائيل، وكان ابتلاءً صعباً، أن يدخل موسى عليه السلام على طاغية عصره ليدعوه بدعوة الله تعالى.

ونقرأ قصة هذه الدعوة في سورة طه:

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي* اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

---

(١) الأنبياء: ٨٧.

يَخْشَى * قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِل مَعَنَا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَة مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَاب لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾[1].

ومن ذلك ابتلاؤه بعد عودته من ميقات الله سبحانه وتعالى بضلالة السامري، وعبادته للعجل، ودعوته لبني إسرائيل إلى عبادة العجل.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ

(١) طه: ٤٢ ـ ٥٢.

وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إِنَّ الَّذِيَن اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ* وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

ومن ذلك ابتلاء موسى عليه السلام باتباع العبد العالم، وكان ابتلاؤه شاقاً على كليم الله عليه السلام، ولكنه كان يخضع بكل أدب النبوة لهذا الابتلاء الصعب، مرة بعد اخرى، حتى بلغ العبد العالم من لدن كليم الله عليه السلام عذراً، فافترقا بعد أن قضى موسى عليه السلام معه جولة من الامتحان الصعب الذي كان لابد له من أن يجتازه معه، واستمع إلى قصة هذا الامتحان العسير في

---

(١) الأعراف: ١٥٠ ـ ١٥٣.

سورة الكهف:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البحرِ سَرَباً * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نصباً * قَالَ أَرَءيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً * فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَينَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصبْرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنهُ ذِكْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا

لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إذا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْس لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكوةً وَأَقْرَبَ رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ

يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[1].

٥ ـ ابتلاء إبراهيم (ع) بالكلمات:

وابتلى الله تعالى إبراهيم أبا الأنبياء بكلمات، فاتمهن كما يقول تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾.

ويذهب بعض المفسرين مذاهب مثيرة للاستغراب في تفسيره هذه الكلمات، ومن ذلك ما رواه بعضهم أن هذه الكلمات هي الخصال العشرة التي تسمى خصال الفطرة، وهي قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس، وتقليم الأظافر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستحداد، وهي مجموعة تعليمات صحية مندوبة في الشريعة.

---

(١) الكهف: ٦٠ ـ ٨٢.

يقول الشيخ محمد عبده في التعليق على هذه الرواية:

«إن هذا من الجرأة الغريبة على القرآن، ولا شك عندي في أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين، ليتخذوا دينهم هزواً، وأي سخافة اشدّ من سخافة من يقول: إن الله تعالى أبتلى نبيا من اجل الأنبياء بمثل هذه الأمور، وأثنى عليه بإتمامها، وجعل ذلك كالتمهيد لجعله إماما للناس، واصلا لشجرة النبوة.

وان هذه الخصال لو كلف بها صبي مميز لسهل عليه إتمامها، ولم يعد ذلك امراً عظيماً»[١].

يقول الشيخ رشيد رضا صاحب تفسير المنار:

كتب إليه رجل من المشتغلين بالعلم في سوريه كتاباً عقب قراءته رأي الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية في مجلة المنار.

يقول فيه: إن تفسير الكلمات بخصال الفطرة مروي عن

---

(١) تفسير المنار ١: ٤٥٤.

ترجمان القرآن ابن عباس ـ فكيف يخالفه فيه، وشدّد النكير في ذلك، وأطنب في مدح ابن عباس.

وقد أرسل إليَّ الاستاذ كتابه عند وصوله ـ وكتب عليه: الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان.

فكتبت إليه، وكان صديقاً لي، كتاباً لطيفاً، كان مما قلته فيه على ما أتذكر.

إننا لم نر أحداً من المفسرين، ولا من أئمة العلماء التزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه، وان صح سنده: فكيف إذا لم يصح وقد قال الشيخ محمد عبده انه يجلّ ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها[1].

ومناقشة الشيخ محمد عبده لهذه الروايات مناقشة صحيحة ومتينة... ولكن الشيخ، مع ذلك لا يريد أن يأخذ بما ورد في القرآن مما حدثنا الله تعالى عنه من ابتلاءات إبراهيم العظيمة، ومن اعظم ذلك ابتلاء إبراهيم بما رآه في المنام من

---

(١) تفسير المنار ١: ٤٥٤.

ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، ويناقش ذلك بمناقشات غير واضحة، فيقول: وإنما هذا الأمر كلمة واحدة جعلوها عشراً، ولست اعتقد بوجاهة هذه المناقشة، فلم يرد في القرآن تحديد لعدد الكلمات، ثم إن ما يحدثنا القرآن الكريم به من ابتلاءات إبراهيم عليه السلام ليس بواحدة، وإنما هي كثيرة، قد تبلغ العشرة وقد تزيد.

وفي رأيي أن تفسير (الكلمات) بما ورد في القرآن من موارد ابتلاء الله تعالى لعبده وخليله إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يغيب عن فكر الشيخ الثاقب، ولكن الشيخ رحمه الله يريد أن يتجنّب هذا التفسير لما يؤول إليه أمر هذا التفسير من فصل الإمامة عن النبوّة أولا واشتراط الإمامة بعدم تلبس الإمام بالظلم في حياته ثانياً، وهذا ما لا يريد الشيخ الإقرار به، وفي نفس الوقت لا يريد أن يفصح عن سبب ذلك.

استخراج الكلمات الإبراهيمية من القرآن

والقرآن نفسه خير مصدر، نستخرج منه هذه الكلمات.

وقد أولى القرآن الكريم حياة إبراهيم عليه السلام عناية كبيرة.

وشرح لنا أدوارا عديدة من حياة أبي الأنبياءعليه السلام وما ابتلاه الله تعالى به من ابتلاءات صعبة في مقاطع مختلفة من حياته، وبإمكاننا نحن أن نستخرج من كتاب الله طائفة من هذه الكلمات التي ابتلى الله تعالى بها رسوله وخليله من غير عناء وجهد.

ونحن فيما يلي نستخرج من كتاب الله ابتلاءات عشرة، ابتلى به تعالى إبراهيم. وهذه الابتلاءات العشرة تنظمها محاور ثلاثة. ولسنا نقول: إنها هي التي ابتلاه الله تعالى بها من الكلمات، وإنما نقول إن بعض هذه الكلمات منها، وإنها مما ابتلاه الله تعالى بها وهي ابتلاءات صعبة والمحاور الثلاثة هي:

١ ـ محور الإيمان بالله

٢ ـ محور الدعوة إلى الله

٣ ـ محور الفتنة والابتلاء

واليك تفصيل هذه الكلمات على هذه المحاور الثلاثة من كتاب الله.

أ ـ كلمات الإيمان بالله

وعلى هذا المحور نجد في القرآن ثلاث كلمات ابتلى الله تعالى بها إبراهيمعليه السلام وهذه الكلمات الثلاث هي:

انتزاع النفس من الباطل.

التوجه إلى الله (الحق).

والولاء لله والبراءة من أعداء الله.

فهذه ثلاث كلمات أتمهن إبراهيمعليه السلام في المرحلة الاولى من حياته.

والكلمة الاولى التي أتمها إبراهيمعليه السلام انه انتزع نفسه من سلطان الأصنام، وسلطان الوسط الاجتماعي، وثقافة الشرك بالله، وكانت هذه الخطوة هي بداية انطلاق إبراهيمعليه السلام في رحلته الشاقة إلى الله.

والخطوة الثانية هي الإقبال على الله بعد أن انتزع نفسه من سلطان الأصنام حيث قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1].

ولا تتم الخطوة الثانية إلا بعد أن تتم الاولى، ولا يتم التوحيد في الإيمان بالله، إلا بعد الكفر بالأصنام والطاغوت.

والخطوة الثالثة هي الولاء لله والبراءة من أعداء الله، وهي نتيجة طبيعية للخطوتين الاولى والثانية، فإذا أعرض الإنسان عن الباطل وأقبل على الله فلابد أن ينظم علاقاته مع الناس على أساس هذا الإعراض والإقبال، فيوالي الله تعالى، ويوالي كل من يوالي الله، ويتبرأ من الأصنام والطاغوت، ويتبرأ ممن يوالي الطاغوت.

وهذا الإقبال، والإدبار، والوصل، والفصل من متطلبات الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

واليك تفصيل هذه الكلمات الثلاثة في حياة إبراهيم عليه السلام من القرآن.

---

(١) الأنعام: ٧٩.

١ ـ انتزاع النفس من الباطل

إن للباطل سلطاناً على نفس الإنسان، ومصادر هذا السلطان متعددة.

فان للباطل ثقافة، وإعلام، وتاريخ، وإغراء، وإرهاب، ومواقع في المجتمع، وفن. وينفذ الباطل إلى نفس الإنسان وعقله بكل هذه الأدوات ومن منافذ مختلفة في النفس، فيحكم الإنسان، ويرسخ في نفسه، ويتمكن منه، وعندئذ يحتاج الإنسان لكي ينتزع نفسه من سلطان الباطل إلى قوة نفسية هائلة. ولقد أتانا الله تعالى هذه القوة الهائلة من دون ريب، ولكن القليل من الناس من يستخدم هذا العزم في مقاومة سلطان الهوى والباطل على النفس، ويتحرر من الباطل وسلطان الهوى.

وليس تنشأ دائماً مشقة التحرر من الباطل من التباس الحق بالباطل، فقد يكون جزء من هذه المشقة في انتزاع النفس من سلطان الباطل، ولكن شطراً كبيراً من محنة الإنسان وابتلائه في صعوبة انتزاع النفس من الباطل حتى بعد أن يعرف

الإنسان الحق والباطل من دون لبس.

وقد يأخذ الإنسان العزة بالباطل، فيدفع نفسه ثمناً للباطل. وهذا هو سر سلطان الباطل على النفس، وصعوبة انتزاع النفس من الباطل.

وإبراهيم عليه السلام نبيّ معصوم عصمه الله تعالى من الباطل والشرك، قبل النبوّة وبعدها، ولكن ذلك لا ينفي انه عليه السلام كان يعيش في أجواء هذا السلطان الذي كان للباطل على عقول الناس ونفوسهم وأنّه انتزع نفسه من سلطان الباطل.

ويقصّ علينا القرآن قصة إبراهيم عليه السلام في مكافحة سلطان الباطل على نفسه وكيف انتزع نفسه من عبادة النجوم، وكيف رفضها وأعرض عنها.

يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً

قَالَ: هذَا رَبِّي

فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ: لاأُحِبُّ الآفِلِينَ

فَلَمَّا رَأى الْقَمَرَ بَازِغاً
قَالَ: هذَا رَبِّي
فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ: لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
فَلَمَّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً
قَالَ: هذَا رَبِّي هذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

ويبدو لي أن الحوار الذاتي الذي تذكره الآية الكريمة لإبراهيمعليه السلام مع نفسه حوار رمزي يرمز إلى الطريقة التي انتزع إبراهيمعليه السلام نفسه من سلطان النجوم والقمر والشمس، وهذا الأسلوب من الحوار الرمزي شائع في القرآن الكريم لمن يألف اسلوب القرآن نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

مَزِيد﴾[١].

فلم يقل إبراهيم عليه السلام للقمر لما رآه بازغاً: هذا ربي، ولكنَّ هذا الحوار يرسم الجهد النفسي الذي مارسه إبراهيم عليه السلام على نفسه، وبينه وبين نفسه لانتزاع من سلطان الشرك في مجتمعه ووسطه.

والذي يلفت النظر في هذا الحوار التدرج والتسلسل الذي تشير إليه الآية الكريمة من «الحسّ» إلى «العقل» ومن العقل إلى «القلب».

فان المحطة الاولى في هذه الرحلة التي تشير إليها الآية الكريمة هي «الحس» حيث يتلقف «أُفول» النجم والقمر والشمس، وهو بالتأكيد حالة محسوسة.

و«العقل» المحطة الثانية في هذه الرحلة، حيث يحكم ببطلان الأُفول، ويجزم بأن الآفل الزائل لا يمكن أن يكون خالق هذا الكون.

---

(١) ق: ٣٠.

و«القلب» المحطة الثالثة، في هذه الرحلة، ومهمة القلب أن يحب ولا يحب. (فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَأُحِبُّ الآفِلِينَ) ومع الحب كره وبراءة (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

وحيث يجزم العقل ببطلان شيء يرفض القلب أن يحبه، وإذا جزم العقل بالحق أحبه القلب، فالقلب يستلم من العقل والعقل يستلم اصول حكمه من الحس... وهذه هي مدارج المعرفة يصورها القرآن ـ في هذا الحوار الذاتي الذي يغلب عليه جانب الرمز. ولا يعتمد إبراهيم عليه السلام عقله ـ بشكل مطلق في هذه الرحلة، فما اكثر ما تزل العقول والقلوب وإنما يستعين بالله تعالى واثقاً أن الله تعالى إذا لم يعنه في تجاوز هذه المرحلة، فلا يستطيع أن يقطع هذه الرحلة الشاقة إلى نهايتها وغايتها:

(لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

٢ ـ التوجّه إلى الله

وهذه هي الكلمة الثانية في الرحلة الإبراهيمية،

فقد أعطى إبراهيم عليه السلام وجهه لله تعالى، بعد أن انتزع

وجهه وقلبه من الباطل، وأعلن براءته مما يشركون.

فقال عليه السلام، بعد أن أعلن براءته مما يشركون.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)... أقول: بعد انتزع وجهه وقلبه مما كانوا يشركون أعطى وجهه لله تعالى فقال:

(وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

وكما أن الإنسان ليس له إلا قلب واحد ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُل مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[١] فاما أن يكون قلبه للحق أو للباطل...

كذلك ليس للإنسان إلا وجه واحد، فأما أن يكون وجهه للحق أو للباطل، فإذا انتزع وجهه من الباطل كان له أن يعطي وجهه لله، ولا يتمكن أن يشطر وجهه شطرين، فيعطي شطراً من وجهه لله، ويعطي شطراً من وجهه لما يشركون من

---

(١) الأحزاب: ٤.

دون الله، كما لا يمكن أن يشطر قلبه شطرين، فيعطي شطراً منه لله، ويعطي الشطر الآخر لما يشركون. والقرآن يرفض الشرك في القلوب والوجوه معاً.

وإبراهيمعليه السلام إذ ينتزع وجهه وقلبه من الباطل، يعطي وجهه وقلبه لله.

وحيث انتزع إبراهيمعليه السلام قلبه ووجهه مما يشركون وأعطاهما لله تعالى وحده... رفعه الله درجات وآتاه الحجة على قومه، وجعل النبوة في ذريته.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وهذه سُنة وقانون، وليس استثناء يختص به إبراهيمعليه السلام

---

(١) الأنعام: ٨٣ ـ ٨٤.

(وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

٣ ـ الولاء والبراءة

وهذه هي الكلمة الثالثة في الرحلة الإبراهيمية. فلا يقتصر الأمر في هذه الرحلة على الأيمان بالله والكفر بالطاغوت «على الصعيد العقلي»، وعلى حب الله ورفض الطاغوت، «على صعيد القلب والعاطفة»، وإنما يستتبع هذا الإيمان والكفر موقعاً عملياً من الولاء والبراءة.

الولاء لله ولأوليائه والبراءة من الطاغوت وحزب الطاغوت.

إن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت قضية نظرية تستتبع حباً وبغضاً أولا، ومنهجاً في السلوك والتحرك ثانياً، وتنظم علاقات الإنسان ثالثاً.

فينتزع الإنسان من شبكة من العلاقات الاجتماعية والسياسية، ويدخله في شبكة اخرى من العلاقات الاجتماعية والسياسية وهذه هي شبكة الولاء.

والى جنب كل ولاء براءة، فالإيمان بالله والكفر

بالطاغوت إذن ينظّمان علاقات الإنسان على أساس وتصوّر جديدين يرتبطان بهذا المحور، وقد أعلن إبراهيم عليه السلام لأبيه (عمّه) وقومه انفصاله عنهم ومقاطعته لهم وبراءته مما يعبدون، وجعل هذه البراءة والمفاصلة كلمة باقية في أعقابه، كما جعل التوحيد كلمة باقية في عقبه من بعده.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ* إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

ولما أصر عمّه على الشرك، ورفض الإيمان بالله لم يتردد إبراهيم عليه السلام أن يعلن براءته منه.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَوْعِدَة وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[2].

---

(١) الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) التوبة: ١١٤.

وإن من أشق الامور على الإنسان أن ينتزع نفسه مرة واحدة من وسط علاقاته الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، فيعتزلهم، ويهجرهم عند ما يستدعي الأمر الاعتزال والهجرة.

ولما أعلن الفتية من أصحاب الكهف الدعوة إلى الله في أجواء البلاط ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً**﴾[١]. لم يجدوا بُدّاً من أن يبتروا علاقاتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بتراً، ويعتزلوا قومهم، وما الله، ويأووا يعبدون من دون إلى الكهف.

﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْووا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ**﴾[٢].

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) الكهف: ١٤.

(٢) الكهف: ١٦.

«ولقد كنا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلاّ إيمانا وتسليماً ومضياً على اللقم وصبراً على مضض الألم»[1].

هذه ثلاث كلمات في الإيمان بالله، وننتقل الآن إلى كلمات الدعوة إلى الله.

ب ـ كلمات الدعوة

وعلى محور الدعوة نجد في القرآن الكريم، لإبراهيم عليه السلام أربع كلمات.

١ ـ الدعوة إلى الله.

٢ ـ التحدّي والمبادرة.

٣ ـ العزلة والهجرة.

٤ ـ إعلان الحجّ.

واليك تفصيل هذه الكلمات من القرآن.

---

(١) نهج البلاغة خطبة رقم ٥٦، اللقم بالتحريك معظم الطريق أو حادثه، ومضض الألم لذعته.

٤ـ الدعوة إلى الله

ليس «الشرك» فكراً أو نظراً أو ثقافة فقط، ولو كان الأمر كذلك لم يجد الدعاة إلى الله عناءً كبيراً في الدعوة إلى الله، وإنما «الشرك» مواقع للنفوذ والسلطان في المجتمع، ولذلك فان أئمة الشرك سوف يوظفون كل الوسائل الممكنة لترسيخ أعمدة الشرك في المجتمع، ومحاربة الدعوة إلى الله، وتحويل الشرك إلى تيّار من الرأي العام. وعندئذ تكون الدعوة إلى الله اختراقاً لهذا التيار، ومواجهة ضارية للشرك في مواقع نفوذه وسلطانه، ومن هنا تنشأ معاناة الدعاة إلى الله تعالى وصعوبة الدعوة إلى الله، فيأمر الله تعالى أنبيائه بالدعوة إليه ويدعوهم إلى ذلك.

تأمّلوا في آيات الدعوة في القرآن:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[١].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٢].

---

(١) طه: ٤٣.

(٢) العلق ١.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[١].
ويعد الله أنبياءه أن يعصمهم من الناس:
﴿فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[٢].
ويدعو تعالى نبيه أن يصدع بالدعوة:
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

ومن عجب أن الدعوة صدع، وفي نفس الوقت إعراض وإغضاء عن جدال المشركين: (وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ).

فان «الجدال» الذي لا يقصد به صاحبه الوصول إلى الحق من أسباب تعطيل دعوة الحق، وليس من منهج الأنبياء مواجهة هذا الجدل وافضل أنواع المواجهة الإعراض عنه والإغضاء منه.

---

(١) المدثر: ١.
(٢) الشورى: ١٥.
(٣) المائدة: ٦٧.

ويأمر الله نبيهﷺ أن يدعو إليه ويستقيم، فلا يستقيم أمر هذه الدعوة من دون الاستقامة والثبات: (فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ).

ويأمر الله تعالى أنبيائه باللين في الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة لئلا ينفر الناس من الدعوة. يقول تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[(١)].

ويقول تعالى:

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[(٢)].

ويدعو الله تعالى أنبيائه إلى الحزم والشجاعة في الدعوة، فلا يخشون أحدا إلا الله.

﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾[(٣)].

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

(٣) البقرة: ١٥٠.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[١].

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٢].

وقد وعدهم الله تعالى أن يعصمهم من الناس.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٣].

إذن الدعوة إلى الله صدع، وإعراض عن المشركين واختراق التيار، ومواجهة، ويحتاج إلى قوة، وشجاعة، وحزم، والى لين، وسعة صدر، والى إغضاء، وإعراض، والى حكمة، وقد حمل إبراهيم عليه السلام لوحده رسالة الدعوة إلى الله على

---

(١) الأحزاب: ٣٩.

(٢) آل عمران: ١٧٣.

(٣) المائدة: ٦٧.

وجه الأرض، في مواجهة الشرك، كلّه فكانعليه السلام لوحده أمة ينهض بالدعوة ويجاهد الشرك.

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً**﴾(١).

فكان إبراهيمعليه السلام يدعو قومه إلى الله بالمنطق والحكمة، واللين والأدب، والحزم، والشجاعة.

فهو حازم وشجاع، لا يخاف أن يفتنه قومه. وهو لين ورقيق معهم لا يريد أن ينفّر عنه قومه.

وهو في نفس الوقت يحاورهم بالمنطق والعلم والمعرفة فلا يجد له قومه جواباً إلا بالإرعاب والتخويف.

ونسمع نماذج من هذه الدعوة في كتاب الله:

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لاَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُم وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلاَل مُبين * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ**

(١) النحل: ١٢٠.

مِنَ اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذلِكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَل مُبِين﴾(٢).

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٣).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ

---

(١) الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦.

(٢) الأنعام: ٧٤.

(٣) العنكبوت: ١٦ ـ ١٧.

يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً * يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[1].

وفي هذا الحوار الذي ينقله القرآن بين إبراهيم وأبيه (عمه) نقرأ من طرف المنطق والمعرفة والإشفاق والرأفة ثم أدب الحوار.

ومن طرف آخر نقرأ انعدام المنطق والإرهاب والتعسف، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

٥ ـ التحدي والمبادرة

تعيش الدعوة بالتحدي والمبادرة، فإذا فقدت التحدي

---

(١) مريم: ٤١ ـ ٤٧.

والمبادرة فقدت ساحة عملها، ولم يعدلها دور في حياة الناس.

إن طبيعة عمل الداعية تطلب منه أن يلتزم دائماً جانب المبادرة والفعل، ويلجئ الطاغية إلى موقع رد الفعل والانفعال.

ولولا ذلك لا يتمكن الداعية من مواجهة الطاغوت، فليس من تكافؤ بين الداعية والطاغوت في إمكانات العمل وفرص الحركة.

فإذا تمسك الداعية بالمبادرة والتحدي، يضطر الطاغوت إلى موقع الانفعال والدفاع، وموقع المدافع دائماً موقع ضعيف، في مقابل موقع المبادرة والمهاجم.

ورغم الإمكانات الكثيرة التي يملكها الطاغية من حيث القوة والمال والإعلام لا يترك له الداعية فرصة للفعل والحركة، فلا يكاد يخرج من موقع انفعال، إلا ليدخل في موقع انفعالي آخر.

والسبب في اختلاف الموقعين بين الداعية والطاغية كامن

في مهمة كل منهما. فان قضية الداعية دعـوة النـاس إلـى الله، وتحرير الناس من الطاغوت، وهم الطاغيـة الاحتفـاظ بنفـوذه وسلطانه، واختلاف الموقـع بينهمـا يجعـل الداعيـة دائمـاً فـي موقع الفعل والمبادرة، الطاغية في موقع رد الفعل، وهو موقـع ضعيف دائماً.

ولا يضرّ بالداعية أن يكون قلـيلا، فقـد كـان إبـراهيمعليه السلام لوحده (أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ).

ولنقرأ مبادرة إبراهيمعليه السلام في تكسير الأصنام في القرآن.

فقد وجد إبراهيمعليه السلام أن قومه بحاجة إلى «صعقة» قويـة منبّهة لينتبهوا، ويعودوا إلى رشدهم من ضلالتهم، فعزم علـى أن يكيد لأصـنامهم فيجعلهـا جـذاذاً، عنـدما يجـد إلـى ذلـك سبيلا، فجعل يترقـب الفرصـة ليـدخل معبـد الأصـنام وحـده، ويجعل الأصنام جذاذاً.

حتى إذا خرجـوا يـوم عيـد لهـم خـارج المدينـة... أسـرع الفتى الشجاع إلى أصنامهم والقصة في القرآن.

**﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيـدَنَّ أَصْـنَامَكُم بَعْـدَ أَن تُوَلُّـوا مُـدْبِرِينَ *

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إلاَّ كَبيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِ يَرْجعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هذَا بِآلِهَتِنا إنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبْرَاهِيمُ﴾[1].

ولـم يفتـه أن يسـخر مـنهم، وهـو يريـد أن ينهـال علـيهم ضرباً وتكسيرا، فيقدم لهم الطعام، ويقول لهـم: (ألا تـأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟).

ولنقرأ القصة في مشاهد أُخرى من سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْب سَلِيم* إِذْ قَالَ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾[2].

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْـهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَالَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَـرْباً بـالْيَمِينِ * فَـأَقْبَلُوا إلَيْـهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُـمْ وَمَـا

(١) الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٠.

(٢) الصافات: ٨٣ ـ ٨٥.

تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[١].

٦ ـ العزلة والهجرة

إن إعلان الدعوة لا ينفك عن العزلة والهجرة، إنه إعلان للمواجهة والحرب بوجه الطاغوت والمؤسسات التابعة له.

لان دعوة التوحيد تدعو الناس إلى توحيد الله تعالى بالولاية والسيادة والحكم في حياة الإنسان.

والبعد الآخر لهذه الدعوة رفض كل ولاية وحاكمية اُخرى غير حاكمية الله تعالى وولايته، وولاية كل من لم يأمر الله تعالى بولايته، وهذه هي بالذات إعلان للحرب والمواجهة، وهو أشرس أنواع الحروب لأنها حرب على القدرة والسلطان والنفوذ، وهي صلب دعوة التوحيد.

وفي هذه المعركة يستخدم الطاغوت كل إمكاناته وقدراته لاستئصال حملة الدعوة وأبادتهم واضطهادهم

---

(١) الصافات: ٨٨ ـ ٩٨.

لتعطيل دورهم في المجتمع.

وخير ما يمكن أن يواجه به الدعاة هذه الحملة الشرسة هو الاعتزال والهجرة.

والاعتزال غير الهجرة، في الاعتزال يخرج الدعاة عن دائرة النفوذ السياسي والحصار الإعلامي للعدو.

وفي الهجرة يخرج عن قبضة الإرهاب، ويسلمون من أشرس حملة يقوم بها الطاغوت لاستئصال الدعوة.

يخرجون عن قبضة إرهاب العدو، ويسلمون، وتسلم بسلامتهم الدعوة من أشرس حملة يقوم بها الطاغوت لاستئصال الدعوة.

ففي قضية الفتية أصحاب الكهف، الذين آمنوا بالله، وخرجوا على قومهم وأعلنوا دعوة التوحيد في أجواء البلاط نلتقي نحن بنفس الظاهرتين (الاعتزال والهجرة).

فلم يجد هؤلاء الفتية لأنفسهم من سبيل، بعد أن أعلنوا الدعوة إلى التوحيد في أجواء القصر غير أن يعتزلوا أقوامهم وما يعبدون من دون الله ليأووا إلى الكهف.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْووا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِن أَمْرِكُم مِرْفَقاً﴾.

والاعتزال والهجرة عملية بتر واسعة للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والوطنية والاسرية، وتبديلها بنسيج آخر من العلاقات، ولذلك فهما من اشق الأعمال على نفس الإنسان.

وقلما يشق على الإنسان شيء، كما يشق عليه أن يبتر علاقاته الأسرية والوطنية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويستبدلها بأخرى من نسيج آخر ونوع آخر.

ولذلك فقد أجزل الله تعالى ثواب الاعتزال والهجرة، إذا كانتا لله، وجعلهما من منازل رحمته في حياة الإنسان.

ففي قصة الفتية من أهل الكهف يقول تعالى:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْووا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِن أَمْرِكُم

مِرْفَقاً﴾(١).

ولما تجهم قوم إبراهيمعليه السلام وفيهم عمه، بوجهه، وهددوه بالرجم لئن لم ينته من دعوته هذه، وأمروه بان يهجرهم ويبتعد عنهم عزم إبراهيمعليه السلام على أن يعتزلهم، ويقاطعهم، ويعزل حياته عن حياتهم.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾(٢).

ويذكر القرآن أن إبراهيمعليه السلام عندما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله، رزقه الله تعالى إسحاق ويعقوب وجعلهما نبيين، ووهبهم من رحمته ما يشاء، وجعل لهم لسان

---

(١) الكهف: ١٦.

(٢) مريم: ٤٧ ـ ٤٨.

صدق في الصادقين.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾(١).

٧ ـ إعلان الحج في الناس

وأخطر عمل قام به إبراهيم عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد هو الدعوة إلى الحج، وإعلان الحج في الناس، كما أمره الله تعالى:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(٢).

لقد أعلن إبراهيم عليه السلام التوحيد في الناس أولاً، وكانت هذه هي المرحلة الاولى من عمل إبراهيم، وهي أشقها واصعبها بالتأكيد، وفي المرحلة الثانية، بعد أن استقر التوحيد

---

(١) مريم: ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) الحج: ٢٧.

في قلوب أمة من الناس أعلن إبراهيمعليه السلام عن إقامة قاعدة صلبة للتوحيد على وجه الأرض في المسجد الحرام، وهي الكعبة التي جعلها الله تعالى قياماً للناس.

﴿**جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ**﴾[1].

وقد أقام خليل الرحمن إبراهيمعليه السلام بذلك للتوحيد أساسا صلباً على وجه الأرض، وجعل من الحج إلى البيت تجمعاً بشرياً للمؤمنين على وجه الأرض يتجمع إليه الناس من بقاع شتى من الأرض كما وعده الله تعالى بذلك.

﴿**يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾[2].

وحقق إبراهيم الخليلعليه السلام بإقامة الكعبة وإعلان الحج استقرار التوحيد على وجه الأرض وفي التاريخ.

فكان الحج منذ أن شرعه الله تعالى على لسان إبراهيم،

---

(١) المائدة: ٩٧.

(٢) الحج: ٢٧.

ودعى إليه حصناً للتوحيد، ومثابة وأمناً لحملة التوحيد، يجمع الموحدين من بقاع شتى من الأرض، ويجعل منهم قوة تردع العدوان عن حركة التوحيد، ومن البيت الحرام، وحصناً وأمنا يثوب إليه المؤمنون في كل عام.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾.

وعهد الله تعالى إلى إبراهيم تطهير البيت وإعداده للطائفين والعاكفين الركع السجود.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

فكان إبراهيم عليه السلام هو الرائد الأول للتوحيد، بالمعنى الحركي السياسي الذي استقر على وجه الأرض، منذ أن

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) الحج: ٢٦.

جعله الله إماما للتوحيد على وجه الأرض. قال:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[(١)].

وكان إبراهيم عليه السلام أول من وضع للتوحيد أساساً بشرياً، يجمع الموحّدين، ويجعل منهم كتلة قوية، مرصوصة، تواجه تحديات الشرك، بكفاءة، وقوة، فكان هو بحق أب الموحدين وأول من سمانا مسلمين.

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[(٢)].

ج ـ كلمات الفتنة والابتلاء

تعرّض إبراهيم عليه السلام لفتن وابتلاءات صعبة وعسيرة في مسيرة الدعوة، وثبت في هذه الفتن حتى شهد الله تعالى له بأنه أتمَّهن وتلك شهادة من الله تعالى لإبراهيم، لا تضاهيه شهادة. ويسجل له القرآن ثلاث كلمات في هذه الفتن والابتلاءات هي:

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) الحج: ٧٨.

١ ـ الصبر

٢ ـ التوكل

٣ ـ التسلم

وفيما يلي توضيح لهذه الكلمات الثلاثة التي اتمهن إبراهيم عليه السلام في خضم الفتن والمحن التي تعرض لها.

٨ ـ كلمة الصبر

تعرض إبراهيم عليه السلام لواحدة من اعظم المحن التي يتعرض لها الأنبياء عليهم السلام فقد اجمع قومه أمرهم على أن يلقوه في النار على مشهد من الناس فجمعوا لذلك حطباً كثيراً، وبالغوا في جمع الحطب، وطلبوا من الناس أن يشترك كل واحد منهم بحسبه في جمع الحطب، ويبدو أنهم كانوا يريدون بذلك إرهاب إبراهيم عليه السلام ليتراجع عن دعوة التوحيد، وإرهاب الناس لئلا يميل إليه أحد من قومه. فجمعوا حطباً كثيراً وأشعلوا النار في هذا الحطب فكان جحيماً كبيراً، وشدوا وثاق إبراهيم عليه السلام ليلقوه في هذه النار بمرأى ومسمع من الناس، وإبراهيم عليه السلام يلقي نظره في هذا الجحيم الذي

يريدون أن يلقوه فيه، وينظر في هذا المشهد الحافل من الناس الذين وقفوا ليشهدوا كيف تبتلعه النيران وهو ثابت كالجبال، لم يهتز، ولم يتردد لحظة واحدة، ولم يجزع، حتى إذا القوه في وسط هذا الجحيم جعله الله عليه برداً وسلاماً.

ولنقرأ هذه القصة المثيرة في القرآن:

﴿قَالُوا حرِّقُوهُ وَانصرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَمَاً عَلَى إبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

ووردت القصة في سورة الصافات:

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ

---

(١) الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٣.

كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾[١].

ويشير القرآن إلى ما رزق الله تعالى إبراهيم من رزق، وما انزل عليه وعلى ذريته من رحمة وبركة، بما صبر في هذه المحنة العظيمة، ونعيد قراءة آيات سورة الأنبياء لننظر في المواهب التي آتاه الله تعالى في هذه المحنة:

١ ـ ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

٢ ـ ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.

٣ ـ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

٤ ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

٥ ـ ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

٦ ـ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾.

٧ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاء

---

(١) الصافات: ٩٨ ـ ٩٧.

استخراج الكلمات الإبراهيمية من القرآن ٥٥

الزَّكَاةِ﴾.

٨ ـ ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

نتائج الصبر في حياة الدعاة

وخير ما يواجه به الدعاة هذه الفتن هو الصبر، فأن غاية الذين يفتنون المؤمنين بأمثال هذه الفتن هي استنفاذ قوتهم وصبرهم ومقاومتهم في مسيرة الدعوة.

ولذلك فان الصبر في مواجهة أمثال هذه الفتن خير ما يمكن أن يواجه به الأنبياء عليهم السلام وأنصارهم من الدعاة إلى الله هذه الفتن. وقد جعل الله تعالى «الصبر» مصدر كثير من الرحمة والخير والنصر.

ويذكرنا القرآن ببركات الصبر وآثاره في حياة المؤمنين، ومن هذه البركات:

أ ـ معية الله للصابرين. يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الصَّابِرِينَ﴾(١).

ب ـ بشارة الصابرين برحمة الله وصلواته. يقول تعالى:

﴿..وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّهِ وإِنّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ..﴾(٢).

ج ـ بالصبر والتقوى يدفع المؤمنون كيد الأعداء ومؤامراتهم يقول تعالى:

﴿وَإِنْ تَصْبُرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُكُمْ شَيْئاً﴾(٣).

د ـ وبالصبر والتقوى يستنزل المؤمنون الإمداد والتأييد من الله تعالى:

﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَورِهِمْ هذَا

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٣) آل عمران: ١٢٠.

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَف مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[١].

هـ ـ وبالصبر يرزق الله المؤمنين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة. يقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

و ـ والصبر يأتي بالنصر. يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[٣].

ويقول تعالى:

---

(١) آل عمران: ١٢٥.

(٢) آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٣) الأنعام: ١٣٤.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ﴾[(١)].

ز ـ والصابرون يسعدون بسلام الله تعالى والملائكة. يقول تعالى:

﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[(٢)].

ح ـ وللصابرين عند الله اجر بغير حساب. يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب﴾[(٣)].

٩ـ كلمة التوكل

ومن افضل أنماط التعامل مع الله أن يجعل الإنسان، الله تعالى وكيلا عن نفسه على نفسه وعلى ما يحب وما يملك وما يتولى أمره... كما يجعل الناس بعضهم بعضاً وكلاء على أموالهم وممتلكاتهم وهذه هي التوكيل والتوكل.

والتوكيل والتوكل يعبر عن ثقة الإنسان بمن يجعله وكيلا

---

(١) الأنفال: ٦٥.

(٢) الرعد: ٢٤.

(٣) الزمر: ١٠.

عن نفسه فيما يحب ويملك.

ولما كان «التوكل» على الله في اعز الأشياء، وأغلاها على الإنسان، وهو نفسه ومصيره وعاقبته ودنياه وأخرته....

فهو يعبر عن أعلى درجات الثقة بالله تعالى.

وهو في نفس الوقت من أفضل أنماط التعامل مع الله، كما ذكرنا، لأن الإنسان، كما يقول القرآن، خليفة الله في الأرض.

فإذا جعل الإنسان الله تعالى خليفة عنه، ووكيلا له على نفسه كانت هذه (الخلافة) متبادلة بين الله تعالى وعبده، وهو من أفضل أنماط العلاقة المتبادلة مع الله والتعامل مع الله.

ونحن في غنى من أن نذكر بان التوكل على الله تعالى ليس بمعنى أن يهمل الإنسان الأسباب التي جعلها الله تعالى وسائل إلى رحمته في الدنيا والآخرة.

فلابد أن يتمسك الإنسان بكل الوسائل التي جعلها الله تعالى في حياة الإنسان، ولكن بشرط إلا تحجبه عن الله، وان يتخذها وسيلة وذريعة إلى رحمته وتبقى ثقة الإنسان في كل

مراحل الحياة بالله تعالى وحده.

وقد عرض الله تعالى عبده وخليله ورسوله إبراهيم لفتنة عظيمة، وامتحن[1] فيها ثقته وتوكله عليه. عند ما طلب منه أن يخرج بزوجته هاجر ورضيعها إسماعيلﷺ إلى واد غير ذي زرع، ويتركهما هناك لله تعالى وحده، ويجعل الله تعالى وكيلا عنه عليهما، ويدعهما في تلك الصحراء القاحلة غير ذات الزرع، وينصرف عنهما إلى فلسطين.

فترك إبراهيمﷺ زوجته ورضيعها إسماعيل في ذلك الوادي القفر غير ذي الزرع، وترك لهما ما تيسر له من ماء وطعام، وودعهما، وتركهما إلى الله، لا ينظر وراءه ليرى أنظار تلك المرأة الصالحة تتابعه في ثقة واطمئنان بمن أودعهما إبراهيمﷺ عنده.

فغادرهما إبراهيمﷺ وملؤ نفسه وقلبه الثقة بالله تعالى

---

(١) الامتحان هنا ليس بمعنى الاختبار كما يكون بين الناس، وإنما هو مشتق من المحنة والمعاناة.

والتوكل على الله وهو يقول:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

والملائكة ينظرون إلى إبراهيمعليه السلام في هذه الفتنة العظيمة، يكبرون ثقته بالله، ويعظّمون توكله على الله، ويؤمِّنون على دعائه. وقد استجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله في تلك اللحظات الحساسة من التاريخ.

١٠ـ كلمة التسليم

وهي أعظم الكلمات التي اتمّهن إبراهيمعليه السلام، طرّاً... بدون ريب... وكل الكلمات التي اتمّهن إبراهيمعليه السلام عظيمات، ولكن أعظمهن، من دون شك كلمة التسليم. وذلك عندما أمره الله تعالى في المنام أن يذبح ابنه إسماعيل، وهو يومئذ شاب يافع يخرج مع أبيه إبراهيم يسايره في ذلك

(١) إبراهيم: ٣٧.

الوادي، بعد أن عمره الله تعالى بقوم من (جرهم)[١].

فيستنشق إبراهيمعليه السلام ريحه، ويمتع ناظريه بجماله، ويملأ سمعه بحديثه ونجواه.

فلما أمره الله تعالى أن يذبح ابنه إسماعيل، لم يصدم، ولم يتردد في أن يفاتح ابنه بذلك، وتقبّل أمر ربه قبولا حسناً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[٢].

ولست أعرف أيهما كان أقوى من الآخر في ذات الله، وأربط جأشاً وأقوى فؤاداً. الأب الذي يفاتح ابنه أنه يذبحه، أو الابن الذي تلقّى هذا الأمر من أبيه بالتسليم والانقياد الكامل لأمر الله تعالى.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾.

---

(١) جرهم، بضم الجيم، حي من اليمن، نزلوا مكة (تاج العروس ١٦: ١٠٧).

(٢) الصافات: ١٠٢.

وأعجب من ذلك كله أن لا يرى هذا الشاب اليافع لنفسه في هذا التسليم العظيم وهذا الصبر الكبير، شأناً يذكر، فلا يرى غير مشيئة الله تعالى مشيئة، ولا يرى غير إرادة الله تعالى إرادة، فيختفي إسماعيل من هذا المشهد العظيم، وتبرز إرادة الله تعالى ومشيئته في حواره مع أبيه. فيقول له في ثقة وإطمئنان وتسليم وانقياد.

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

وهو يريد أن يطيب قلب أبيه فلا يجزع لما أمره الله تعالى به.

لست اعرف أيهما أربط جأشاً وأقوى فؤاداً، وأسكن نفساً لامر الله، وأكثر تسليماً وانقياداً لحكم الله تعالى، الوالد، أو الوالد، وليس لنا أن نقول بين يدي هذا المشهد العظيم الذي خشعت لجلاله ملائكة الرحمن، وحفّت به، وضجوا حوله، بالتسبيح والدعاء إلا أن نقول ما قاله رب العالمين.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾

كل منهما اسلم: اسلم الوالد نفسه لله، واسلم الولد نفسه

لله، ولم يذكر الله تعالى عن هذا المشهد العظيم غير هذه الكلمة، وناهيك بها من كلمة وشهادة من رب العالمين بحق عبديه وخليليه إبراهيم وإسماعيلﷺ. (فَلَمَّا أَسْلَمَا).

واحتفل الملائكة يومئذ بهذا التسليم العظيم، بقي هذا الوسام الإلهي على ناصية كل من إبراهيم وإسماعيلﷺ منذ تلك الساعة إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة، يردّده أجيال الموحدين، جيلا بعد جيل: (فَلَمَّا أَسْلَمَا).

اسلم الوالد والولد، وتمَّ كل شيء، فلا اعتراض من أي منهما، ولا تردّد، ولا تحرّج، ولا ريب، ولا ضعف.

تسليم مطلق لامر الله، وانقياد كامل لحكمه من الوالد والولد، ثم يُبْرِزُ القرآن دفعة واحدة هذا المشهد العظيم في ذلك الوادي القفر، الذي لم يحضره يومئذ من الناس أحد غير الذابح والذبيح، وحضره، من الملائكة ما لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجّون إلى الله بالدعاء والتسبيح أن يفدي إسماعيل بذبح عظيم.

واليك هذا المشهد العظيم كما يصوره القرآن.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[1].

صرع الوالد ولده على أحد جانبي جبهته وأجرى السكين على رقبته.

والتقطت ذاكرة التاريخ هذا المشهد العظيم ونقلته إلى أجيال الموحدين جيلا بعد جيل. ليعلموا الثمن الكبير الذي دفعه ابواهم من قبل: إبراهيم وإسماعيل، لمسيرة التوحيد.

وأعلن الله تعالى للملأ من ملائكته، ولأجيال الموحدين، هذه الشهادة العظيمة لإبراهيم.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ﴾[2].

وناهيك بها من شهادة من الله تعالى لإبراهيم.

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) وليس للعبد من الله موقفاً أفضل

---

(١) الصافات: ١٠٣، تلّه: صرعه. والجبين أحد جانبي الجبهة. والمعنى: فلما صرعه على جبينه.

(٢) الصافات: ١٠٤ـ١٠٦.

وأجلّ من «الصدق».

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[١].

وهو يوم القيامة: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[٢].

فإذا صدق العبد في علاقته بالله وتعامله معه تعالى بوأه الله تعالى في مقعد صدق عنده، وفي جواره وبقربه.

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) وليس بعد هذه الشهادة، شهادة ولا بعد هذا القرب قرب، ويعلن الله تعالى لابراهيم عليه السلام أنه تعالى قد تقبّله في المحسنين، ورفعه الى موقع المحسنين، وجزاه بما يجزي به المحسنين.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، وإبراهيم عليه السلام إمام المحسنين.

ثم يعلن الله تعالى للملائكة ولاجيال الموحدين.

---

(١) الأحزاب: ٣.

(٢) القمر: ٥٥.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاء الْمُبِينُ).

وليس ممّا ابتلى الله تعالى به عبده، وخليله إبراهيم بلاء أبلى وامتن واعظم من هذا البلاء.

واستجاب الله لدعاء ملائكته وهم يومئذ يضجون اليه تعالى بالدعاء، وفدى الذبيح بذبح عظيم.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(١).

وتباشرت به الملائكة يومئذ، واحتضنا، الوالد والولد، يبكيان سروراً وشكراً لله، يشكران الله تعالى على هذا الفداء، ويبكيان ويحمدان الله تعالى على ما رزقهما من (التسليم)، ويثبّت الله تعالى في ذاكرة التاريخ هذه التحية الجميلة من الله رب العالمين لعبده وخليله إبراهيم يردده أجيال الموحدين، من أبناء إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ *

---

(١) الصافات: ١٠٧.

كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

شهادة الله تعالى لإبراهيم

ربما تكون هذه الكلمات هي الكلمات العشرة التي ابتلا الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام والتي اتمهنَّ إبراهيم.

لست ادعي أنها هي الكلمات التي يقول عنها تعالى: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ﴾**[2].

ولكنني أقول إنّ من تلك الكلمات، بعض هذه الكلمات. واقول أن الله تعالى ابتلى بها عبده وخليله إبراهيم عليه السلام فأتمّهن إبراهيم.

وفي نهاية هذه الكلمات تأتي الشهادة من الله تعالى، وكفى به شهادة، وناهيك بها.

(فَأَتَمَّهُنَّ) أتمهن جميعاً، وليس بعضاً، واتمهنّ من دون تقصير، ومن دون ضعف.

---

(١) الصافات: ١٠٨ ـ ١١١.

(٢) البقرة: ١٠٤.

وتلك شهادة من رب العالمين لعبده وخليله إبراهيم.

جزاء إبراهيم (ع) من اللّه

وقد جزى الله تعالى لإبراهيمعليه السلام كما هو شأنه تعالى جزاء الجميل بالجميل، وهو الشكور، الوفي، الجميل.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

وجزاء الله تعالى لإبراهيمعليه السلام جميل وعظيم وكبير، ونحن نشير في هذا المقال إلى عشرة نقاط فقط من نماذج الجزاء الإلهي لإبراهيمعليه السلام مما ورد ذكره في القرآن، وخلّده الله تعالى في ذاكرة الموحدين من أبناء إبراهيمعليه السلام وهذه العشرة هي:

١ـ اصطفاء الله تعالى إبراهيم (ع) للامامة:

يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[1].

---

(١) البقرة: ١٢٤.

وهذه «الإمامة» غير «النبوة» فقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً عند ما ابتلاه الله تعالى ببعض هذه الكلمات.

وهي إمامة التوحيد، والقيادة السياسية لحركة التوحيد على وجه الأرض، ولا نفهم نحن إمامة سياسيّة لحركة التوحيد على وجه الأرض قبل إبراهيم عليه السلام، والله اعلم.

يقول تعالى:

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

٢ـ اصطفاء ذرية إبراهيم (ع) للإمامة والنبوة:

وقد طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى عندما وهبه الله الإمامة أن يجعل الإمامة في ذريته، فاستجاب الله تعالى لدعاء عبده وخليله، واستثنى من ذلك الظالمين من ذريته.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ
قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً

---

(١) البقرة: ١٣٠

قَالَ: وَمِنْ ذُرِّيَتِي؟

قَالَ: لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[١].

ويقول تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٢].

﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ﴾[٤].

٣ـ إبراهيم (ع) اسوة وقدوة للأجيال:

وجعل الله تعالى إبراهيم أُسوة حسنة وقدوة لأجيال

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) آل عمران: ٣٣.

(٤) الحديد: ٢٦.

الموحدين، وبذلك فقد جعل الله تعالى من إبراهيمعليه السلام مقياساً للتوحيد والتقوى في حياة الموحدين. يقيسون به توحيدهم وتقواهم وعملهم في الدنيا.

يقول تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[1].

٤ـ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً:

يقول تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[2].

وناهيك به من موقع ومقام لإبراهيمعليه السلام عند الله تعالى، ولم يذكر الله تعالى في كتابه هذا الموقع لأحد من عباده الصالحين غير إبراهيمعليه السلام.

---

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) النساء: ١٢٥.

٥ـ البصيرة بالملكوت واليقين:

ورزق الله تعالى إبراهيم البصيرة بالملكوت.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـماوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(١).

٦ـ تخليد ذكر إبراهيم (ع) في الكتاب:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾(٢).

٧ـ واصطفاه الله رائداً لحركة التوحيد:

ومن يأتي من الموحدين بعد إبراهيم عليه السلام فهو من ملة إبراهيم عليه السلام:

﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وكل الموحدين من بعد إبراهيم على خط إبراهيم ومن

---

(١) الأنعام: ٧٥.

(٢) مريم: ٤١.

(٣) آل عمران: ٩٥.

ملّة إبراهيم.

يقول تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[١].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾[٤].

والانتماء إلى إبراهيم انتماء عمل وليس انتماء نسب.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ

---

(١) النحل: ١٢٣.

(٢) الأنعام: ١٦١.

(٣) النساء: ١٢٥.

(٤) البقرة: ١٣٠.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

وقد جعل الله تعالى أجيال الموحدين أبناء إبراهيم عليه السلام. فقال تعالى:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾.

فهو أب الإسلام دعا إلى الإسلام، ورفع شعار الإسلام، وهو أول المسلمين، وهذه التسمية تعود إليه عليه السلام.

﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)].

٨ـ آتاه الله تعالى الرشد:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾[(٣)].

٩ـ حسن ثناء الله تعالى على إبراهيم (ع):

وقد خصَّ الله تعالى إبراهيم بثناء طيب، خلَّد ذكره في

---

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الأنبياء: ٥١.

كتابه. يقول تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانتاً لِلَّهِ حَنيفاً﴾[١].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنيبٌ﴾[٢].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[٤].

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْـدِي وَالأَبصَارِ﴾[٥].

١٠ـ وسَلَّمَ الله تعالى على إبراهيم (ع):

﴿سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٦].

---

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) هود: ٧٥.

(٣) التوبة: ١١٤.

(٤) النجم: ٣٧.

(٥) ص: ٤٥.

(٦) الصافات: ١٠٩.

وهذه تحية جميلة من الله العظيم والجميل، لعبده وخليله ورسوله إبراهيمعليه السلام.

فسلام عليه يوم ولد، ويوم مات، ويوم يبعث حيّا، ورزقنا الله تعالى بعضاً من صدقه وتسليمه ووعيه ومعرفته وبصيرته بالله تعالى.

الفهرس